

القصص

الهيكل العظمى

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور

في الغرفة المجاورة لحجرة نومنا — نحن الأطفال — كان هناك هيكل عظمى معلقاً ، يجلجل في الليل حين يداعب النسيم عظامه ، أما في النهار فقد كنا نحركه بأنفسنا ، وكان يدرس لنا علم العظام طالب بمدرسة طب كامل ، ذلك لأن من حولنا وطمخوا العزم على أن يجعلوا منا أساتذة مبرزين في كل المواد ، ومهما كان نجاحنا فلم نكن لنخبر به أحداً ممن يعرفنا ، كما كنا نخفي ذلك عمن لا يمت إلينا بصلة .

مرت سنون اختفى في أثنائها الهيكل من الحجرة ، كما حيت بقايا علم الاستولوجيا من ذاكرتنا ، ولم تترك وراءها أثراً ، وفي يوم من الأيام كان منزلنا في هرج يموج بالضيوف ، وقد رلى أن أقضى الليلة في تلك الحجرة القديمة ، وعبثاً كنت أحاول إغراء الكرى ليطلق جفوني ؛ وبينما أنا أتقلب في مضجعي سمعت كل ساعات الليل تدق واحدة إثر أخرى في المعبد المجاور لي ، وبعد عدة دقائق انطلقاً الصباح الموضوع في ركن الحجرة ، بعد أن ظل شعاعه الخفّاق يضطرب ، فأسامني الظلام الى تذكر بعض أحياء فقدناهم ، وتأملت خفوت الشعاع في محيط من الديجور القاتم ، ومن ثم قارنت بينه وبين خروج الروح من أجسامنا البشرية الضئيلة وهالتي الشبه العظيم بينهما .

وقد جعلاني تداعي الأفكار أفكر في الهيكل العظمى ، وبينما أنا أرسم في خيالي صورة للجسد البشري الذي كان يكسو هاتيك العظام النخرة ، خيل إليّ أني أسمع وقع أقدام تجوس خلال الحجرة وحول الفراش وتلمس الجدران ، وأحسست أني أسمع أنفاس المتجول المضطربة ، وكأنما أعياء البحث فمضي يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وخدعت نفسي بأن ما أسمع ليس إلا من قبيل الوهم ،

وما صورته لي إلا الأرق الطويل ، وتشتت العقل ، ومحاكاة اضطراب أعصابي حاكى لوقع الأقدام ؛ ومع ذلك فقد عرّنتني قشعريرة سرت في جسدي ، ولكي أتخلص من هذا الوهم هتفت صارخاً : « من هنا ؟ » وإذا بالساري يقف حذاء فراشي ويقول : « إنه أنا ، لقد جئت أفتش عن هيكل الذي بارحته » . فرأيت من الجبن أن أتخاذل أمام مخلوق صورته وهمي ، وجسمه خيالي ؛ فأمسكت جيداً بالوسادة وقلت : إنه عمل جميل في هذا الوقت المتأخر من الليل ! ما جدوى هذا الهيكل لك الآن ؟ وإذا بالصوت يصدر من الكلة نفسها ويقول : ياله من سؤال عجيب ! إن في هذا الهيكل عظاماً كانت سياجاً يقي قلبي الفتى الذي لم يجاوز السادسة والعشرين ، أفلا يحق لي أن أراه مرة أخرى ؟ . فقلت له : « لاشك في ذلك ، إنها رغبة سامية محترمة ، فلتبحث عنه ماشئت ، ودعني أنعم بالكري قليلاً ! » فقال الصوت : « أظنك هنا منفرداً ، حسن ، إني لأغتم هذه النهضة لأجلس برهة معك ، نتجاذب فيها الحديث ، وتلك سجيّتي ، فقديمًا كنت أجلس إلى الرجال نتحدث ، ولكن في الخمسة والثلاثين عاماً الأخيرة ، أبدلت ذلك بأنيني مع الرياح الداوية عند قبور الأموات ، وهأنذا أتكلم مع فرد من بني البشر لأول مرة منذ مماتي » .

وأحسست أن شخصاً يجلس قرب كلة سريري ، فأذعنت للواقع وأجبت : « إن هذا في الحقيقة شيء جميل جداً ، وهيا بنا نتكلم في شيء طريف » فقال الصوت : « إن أجمل شيء أتذكره هو تاريخ حياتي ، فدعني أقصه عليك »

وحينذاك دقت الساعة دقتين فانطلق محدثاً وقال : « عند ما كنت في ميعة العمر في دنياكم ، كنت أخشى شيئاً واحداً كما أخشى الموت ، ألا وهو زوجي ، وكانت احساساتي أشبه باحساسات سمكة علقّت بالشص ، إذ كنت أحسبني هذه السمكة ، وقد نزعّت من ذلك الهدوء الذي شعرت به في منزل الصبا . لقد مات زوجي عقب زواجي بشهرين ولم يكن حزنهم على وفاته أكثر من حزنهم على حظي التعس ، أما أبوه فقد نظر إلى وجهي ذات يوم وقال لزوجته : ألا ترين في عينها نذير الشؤم ؟

ثم قال الصوت : « أمنصت أنت لقصتي : أمل أن تكون قد أعجبتك ! »

فقلت : « لقد أخذت على جماع مشاعري وإن مبدأها ليشوق المرء إلى نهايتها . »

« ثم عاد الصوت يقول : دعني أتمها ، لقد عدت إلى منزل والدي ، والسرور يملأ نفسي ، واستنكر الناس هذا مني ، ولكنني كنت أعرف جيداً أنني على قسط وفير من الجمال ، ألا ترى ذلك ؟ »

« فقلت : لاشك في ذلك ، ولكن يجب أن تتذكرى أنني لم أرك أبداً . »

فصاح الصوت : « عجباً لك ! ألم ترني مطلقاً ! إذن فما هذا الهيكل العظمي ، هاها ، لا بأس عليك ، لقد كنت أمرح معك وهل في مقدوري أن أعرفك كيف كان في هاتين الحفرتين الغائرتين عيان يشع منهما السحر ، وألاً تشابه بين الشفتين الياقوتيتين اللتين كانتا تفران عن ابتسامة فتاة وبين تلك الأسنان القائمة التي تعودت أن تراها ، وإني كلما حاولت أن أصور لك ما كنت عليه من جمال عبقرى ، وحسن وبهاء ورقة ، ابتسمت طرباً كما أشعر بشيء من الحزن والغضب ، وإن أشهر أطباء عصرى لم يكن يخطر على بالهم أن عظامى ستكون يوماً وسيلة لتفهم دروس الاستولوجى ، أتعرف طبيباً شاباً — كما أعرف — قارن بينى وبين زهرة (الشامباك) وما دار بخله أن هذا الهيكل المحطم لفتاة كانت هى زهرة الجمال ، وكلما سرت شعرت بأني قطعة من الماس المتألىء ألقيت في جوف الثرى ، وأن كل حركة منى تثير عاصفة من الإعجاب ، وكما أمضيت الساعات الطوال أتأمل هاتين اليدين اللتين تمناهما كثير من الشبان المتيمين ، ولكن هذا الهيكل الجامد ، لا يستطيع أن يحرك شعورك نحوى ، ولست أملك وسيلة أدحض بها هذا الاقتراء الذى يوحى إليك هيكلى ، ولذلك أشعر بمقت للرجال ، وهأنذا أطرد الكرى عن مقلتيك بوصفى لك شفتى الورديتين . »

فصحت قائلاً : « أقسم لك بجسدك ، أنك لو كنت محتفظة به حتى الآن لما كان للاستولوجى أثر فى ذاكرتى ، ولكان الذى يملؤها هو صورة الحب القوى العاصف يلوح لى فى غياهب الليل ، ولست أذكر لك أكثر من ذلك . »

فتابع الصوت كلامه قائلاً : « لم تكن لى فتاة شقيقة ، أما أخى الوحيد فقد وطد العزم على ألا يتزوج ، وكنت أقضى

الوقت منفردة فى الحديقة أتقياً ظلال الأشجار المتهدلة ، وأسبح فى بحر الخيال . فأتصور العالم كله يعبد جمالى ، وأن النجوم الزهر تسكر من حسن طلعتى ، وأن الرياح تدوى إعجاباً بى ، والعشب المخضر يضطرب ثملاً حين أخطر فوقه ، وكنت أحسب شباب العالم كلهم كالأعشاب التى أطوها بقدمى ، ولكن قلبى لأمر ما كان ينطوى على شيء من الألم ، وكان لأخى صديق اسمه (شيكار) أتم دراسته بكلية الطب وأصبح طبيب العائلة ، وكنت أرقبه عن كذب من خلال الأستار ، أما أخى فقد كان رجلاً شاذاً اعتزل الناس ، وأوى إلى ركن مظلم ، وإذا كان (شيكار) صديقه الوحيد فقد أبيح لى أن ألقاه ، وكنت إذا مضيت إلى الحديقة مساء ، تخيلت كل عشبها (شيكارا) آخر . أمنصت أنت إلى ؟ فم تفكر الآن ؟ »

فقلت : « أفكر فيما لو كنت (شيكارا) هذا ! »

فقال الصوت : « تمهل قليلاً ، وأنصت للقصة كاملة ، ففي يوم ممطر ، أصابتنى الحمى ، وجاء الطبيب يعودنى ، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها ، وكنت أتكىء على حافة النافذة حتى تصبغ حمرة الشفق المودع وجنتى ، وحين جاء الطبيب تأمل فى وجهى ملياً فقلدته ، وتأملت فى نفسى فخيل إلى أن وجهى وردة حمراء ، قد ألقيت على وسادة بيضاء ، فسأل الطبيب أخى أن يجس النبض ، ولم أر طبيباً أجبن منه ، حتى أن أصابعه كانت تضطرب ولا تستقر حين أقبل يتلمس معصمى ، وفى النهاية سجل حرارة الحمى التى انتابتنى ، أما أنا فقد قدرت خفقان قلبه ، أعندك شك فى ذلك ؟ »

فقلت : « كلا . كلا ، إن خفقات الفؤاد لتحكى قصته ! ! » فقال الصوت : « بعد أن أبلت من مرضى المنهك ، ألقيت كل أحبابى قد رغبوا عني ، وأخيراً أصبح الطبيب يعود مريضاً فحسب ، وكنت فى هذه الأمسيات أرتدى ثوباً أبيض ، وقد تدلت عليه ضفائر شعري المحلاة بزهور الياسمين الأبيض ، ومن ثم أتخذ مقعدى المعتاد تحت أفنان الأشجار ومرآتى فى يدي ، وربما تظن أن رؤية الشخص لصورته وجماله فى المرآة تجعله ملولاً . ولكن الواقع غير ذلك ، لأننى لم أكن أرى نفسى بعينى رأسى ، لقد كنت شخصين فى جسد واحد ، فكنت أنظر لنفسي بعين الطبيب ، وشعرت بجنون الحب ، ولكن برغم هذا الدلال الذى أسرفت فيه قد كانت هناك آهة حبيسة تتردد فى صدري وتئن كما تئن رياح الليل ، ولم أكن فى ذلك الحين وحيدة ، بل كنت حين أسير أتطلع بعين

فأجابني في تهدي: « وهل تحسبن في الزواج سعادة أولدة؟ »
فانفجرت ضاحكة وقلت: لا، لا، لن يكون ذلك، وهل
هناك عرس لم توقد فيه المصابيح ولم تعزف الموسيقى؟
وظلمت أزعج أخى حتى أصدر أمره باحضار جماعة الموسيقى،
وكنت أبتسم طيلة الوقت، وأتحدث عن العروس وحياتها،
وما سأفعله حين تأتى المنزل. وسألته: خبرني يادكتور هل ستظل
تجس النبض؟ ثم انفجرت ضاحكة: وتم عقد الزواج في ساعة
متأخرة من الليل، وقبل ابتدائه كان أخى والطبيب قد جلسا إلى
خوان صغير يشربان كأساً من الخمر، ولما هتك القمر أسداف
الظلام، سألت الطبيب: « أنسيت عرسك وقد حان الوقت؟ »
ومضيت إلى صيدليته أنلمس فيها قليلاً من مسحوق وضعته في
كوبته حين كان مشغولاً عنها، وإذ ذاك رفعها الى فمه وتجرعها
دفعاً واحدة، ثم صوبت إلى نظرة اخترقت شغاف قلبي وقال:
الآن سأذهب الى حيث لا عودة لى أو مآب.

ولما صممت الموسيقى للراحة، مضيت إلى غرفتي وارتيديت
ثياب عرسى الحريرية الموشاة بالذهب، وأخذت جواهرى كلها
ووضعت شارة العرس الحمراء على مفرق، ومن ثم هيات فراشى
تحت شجرة في الحديقة.

وكانت ليلة جميلة ناعمة، ورياح الشمال الهادئة تقبل ما تمر عليه
فتحمل الطمانينة الى القلوب، وقد فاح في أرجاء الحديقة عطر
الياسمين الشذى، وبينما الموسيقى آخذة في الهدوء شيئاً فشيئاً،
كان وجه القمر يلتحف حجب السحاب المغبر القاتم، وبدأت
أغيب عن الدنيا رويداً رويداً، وأفقد شعورى، وأغلقت عيني
مبتسمة، وتذكرت مجيء الناس ومشاهدتهم إياي هنا، ولكن
وأسفاه على الملابس الحريرية المذهبة؛ وحين استيقظت على صوت
لفظ حولي، ألفت ثلاثة شبان يدرسون علم العظام على هيكلى،
فجاشت في نفسى الآلام، وأخذت زهرات الشباب تنفتح عن
أكامها، وإذا بالأستاذ يشير بعصاه الى عظامى مسمياً إياها بأسمائها
العلمية، ولكن أترى أثراً لهذه الابتسامة الأخيرة، وهل أعجبتك
القصة؟ فقلت يالها من قصة رائعة!

وفي هذه اللحظة رنت أول صيحة وقلت: « أنت هنا؟ »
فلم يجبني سوى الصدى، وحينذاك كانت أشعة الصباح قد نفدت
الى الحجرة ما

حسن محمد محمود

استدراك

فاتنا أن نذكر أن قصة الغفل الخدوع التي نشرناها في العدد الماضى
ترجمها كاتبها عن الانجليزية

كثيرة إلى أصابع قدى وأعجب ماذا تكون حالة الطبيب لو أنه
شاهدنى الآن، أما فى الظهيرة، حين تتوسط ذكاء كبد السماء،
ولا يسمع صوت هنا أو هناك إلا صيحة حدأة لا تلبث أن
تتلاشى، فقد كان يمر خلف سور حديقتنا بائع الصقور ينادى
« صقور زجاجية للبيع » وحينذاك أبسط على العشب خرقة بيضاء
أجلس عليها وأعتمد رأسى بكفى، ويدي الأخرى تعبت
بالحشائش، وكنت أتحيل أن هناك من يرقبني فى مجلسى هذا
ويعجب بي، ويود لو أنه طبع قبلة على أطراف أصابعى الوردية...
ولكن كيف أتم لك قصتى، وفى استطاعتى أن أسامرك حتى
الصباح ولكن ذلك يفضها لك... إذن دعنى أظل فى قصتى، أما
الطبيب فحين مارس صناعته جيداً استأجر غرفة فى الدور الأرضى
بمنزلنا وجعلها عيادة للمرضى، وكنت أتسلى بسؤالى إياه عن
الأدوية والسموم والمقدار الذى يميت من هذا الدواء أو ذاك،
ولكن هذه الأحاديث أخذت طوراً آخر، فقد جعلتني أتأمل فى
فكرة الموت، وكان الحب والموت شاغلي تفكيرى وحياتى

مضى على ذلك ربح من الزمن، لاحظت فيه على الطبيب
تشتت الذاكرة، وخيل إلى أنه يحتفظ فى صدره بسر ينجل
أن يحدثني عنه، وفى ذات ليلة جاء مرتدياً كثيراً من
الملابس واستعار مركبة أخى، وهنا ثارت الدهشة فى نفسى، ومضيت
استفسره عن كل شيء، وبعد أن تجاذبت معه الحديث سألته:
ألك أن تخبرني يا (دادا) عن وجهة الطبيب هذه الليلة وقد استعار
مركبتك؟... فأجابني أخى فى صوت أجش « الى الموت »
فصحت به « أخبرني حقيقة أين هو ذاهب »... فقال فى شيء
من الصراحة « مضى ليتزوج » فتعالت ضحكاتى طويلاً وقلت:
أحقاً ما تقول؟

وعرفت حينذاك أن العروس وريثة ثرية، ستفجح الطبيب
مبلغاً كبيراً من المال، ولكن لماذا كان يخدعنى طيلة الوقت
باخفائه ذلك عني، وهل توصلت اليه ألا يتزوج حتى لا يحطم قلبي؟
ولكن تلك سجية الرجال طبعوا عليها فتصديقهم ضرب من
البلاهة، لقد عرفت فى حياتى كلها رجلاً واحداً، ولكنه
سرعان ما اختفى وتفقده فلم أجده.

وبعد أن أتم الطبيب عمله وعاد إلينا، وتنبها للعمل سألته
ضاحكة: لقد أحسنت يادكتور، أعزمت على الزواج هذه الليلة؟
ولم يفقده سرورى ابتسامة محياه فحسب، بل أثاره ذلك فسألته:
« ولم لم توقد الثريات ولم تعزف الموسيقى؟ »